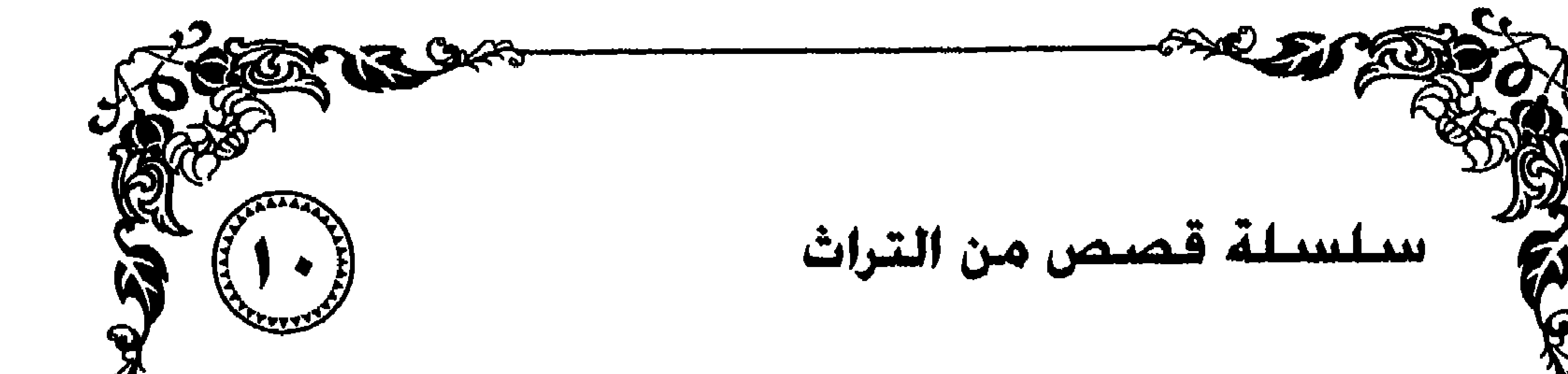


سلسلة قصص من التراث

(١٠)

العفو عند المقدرة

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

العفو عند المقدرة .- الرياض.

١٧ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٠ - ٩٨٣ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤١

ردمك: ٠- ٩٨٣ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤١

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

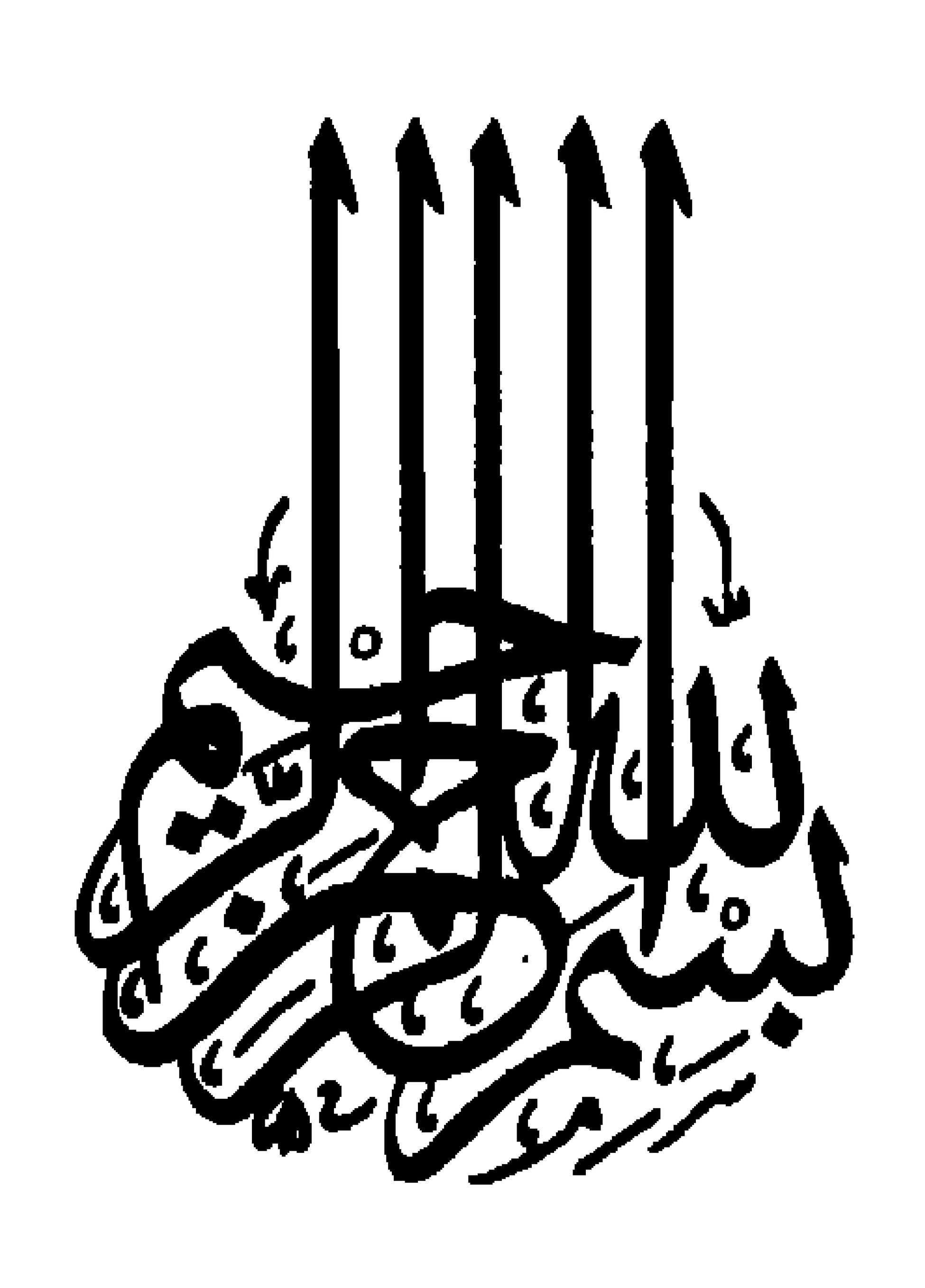
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يهنأْ لعمرو بن هندٍ بالٌ حتى يعرفَ سرَّ رجلين من قبيلة طيءٍ انتشرتْ أخبارُهما في الآفاقِ وأصبحتْ سيْرَتُهما على كلِّ لسانٍ، وكانَ عمرٌو هذا سيداً من ساداتِ العربِ في الجاهلية، وشاعراً مقداماً، وفارساً مغواراً، وكانتِ العربُ تفدُ عليهِ كلَّ عامٍ تسمعَ أشعارَهُ، ويسمع أشعارَها.

وذاتَ يومٍ وَفدَ رجالٌ من قبيلةِ طيئٍ على عمروِ بنِ هندٍ، فوجدَها فرصةً سانحةً لكشفِ سرِّ حاتم الطائي وأوس بن حارثة بن لأم اللذين كانا في مقدمةِ الوفدِ.

رَحَّبَ عمرو بوفدِ طيء وأكرمهم خيرَ إكرامٍ، وذاتَ ليلةٍ دعَا أوساً إلى مجلسهِ الخاصِ وقال له: أَنْتَ أفضلُ أمْ حاتمٌ؟

فقال أوسٌ: أبيتَ اللعن، إنَّ حاتماً أوحدُهَا وأنا أحدُها، ولو مَلكني حاتمٌ وملكَ جميعَ أولادي وأقاربي لكنا لهُ كرجلٍ واحدٍ، ألم تسمْع بكرمِ حاتمٍ وجودِهِ لأضيافه، ألمْ تسمع قولَهُ:

أُضاحِكَ ضيفي قَبْلَ إنزالِ رَحْلِه
ويَخْصُبُ عندي والمحلُّ جَديْبُ
وما الخصبُ للأضيافِ أنْ يكثرَ القِرَى
ولكنما وَجْهُ الكريم خصيبُ

فأين أنا منْ حَاتم!

ألمْ تردكَ أنباءُ حاتمٍ أيُّها الملكُ لقد كَانَ يُوْقِدُ نارًا حتى يستدلَّ الأضيافُ على بيتهِ وكانَ يطلقُ سراحَ الغلام الذي يجلبُ ضيفًا ألم تسمع قوله:

أَوْقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قُرُّ
والريحُ يا موقدُ ريحٌ صِرُّ[1]
عَلَّ يرىَ نارَك مَنْ يَمُرُّ
إنْ جَلبَت ضيفًا فأنتَ حُرُّ

وذاتَ يومٍ أيُّها الملكَ قام حاتمُ يضرب ابنَه، وقلَّما يضرب أولادَهُ لقد ضرَبَهُ لأنهَ رآهُ يضربُ كلبته التي تدلُّ على أضيافهِ فقالَ:

أَقولُ لابني وَقدْ سُطتُ[2] يديه
بكلبة لا يَزالُ يجلدُهَا
أوصيكَ خيراً بها فإنَّ لهَا
عِنْدي يداً لا أزال أحمدُهَا
تدل ضيفي عليَّ في غلس الليـ
ـلِ إذا النار نام مُوقدها

(١) صر: شديد البرودة.
(٢) سطت: ضربت بالسوط.

دَهِشَ عمرُو بين هند من شهادة أوسٍ لحاتم وكان يعرفُ تلك الأخبارَ ولكنَّه أحبَّ أن يختبرَ أوسًا ويرى موقفهَ من حاتم هلْ يغارُ منهُ؟ هلْ يحسده؟

وأخيرًا قالَ لَهُ: أعرفُ أنك شاعرٌ فهل قلتَ شيئًا في حاتِم، قال أوسٌ نعمْ قلتُ:

فـتى لا يزالُ الدهرَ أكبرُ همِّه
فِكاكُ أسيرٍ أو مَعُونَةِ غارمِ(١)

أُعجبَ عمرو بن هندٍ من أوسٍ وأمرهُ بالانصراف وطلبَ أنْ يكونَ هذا الحديث سرًا بينهُمَا.

وفي الليةِ التالية طلبَ عمروُ بن هند من حاتمِ أنْ يحضَر مجلسَهُ الخاصَّ فحضر فقال له عمروٌ: أَنْتَ أفضلُ أمْ أَوْسٌ؟

فقال حاتمُ: أبيتَ اللعنَ: وهَلْ أقارنُ بأوسٍ؟ إِنَّ أصغر أوْلادِه أفضلُ مني!

وتابعَ حاتمٌ حديثه لعمرو بن هندٍ - وكأنكَ لمْ تسمعْ بأخبار أوسٍ وكَرَمِه إنهُ لم يبلغِ السيادة إِلا بحلمهِ وخدمتهِ للعربِ حتىَّ أولادُه سارُوا سيرتَهُ ومشوا خطاهُ، والعربُ كلُّها تعرفُ ذلكَ.

(١) غارم: من لزمه دين.

ألم تسمعْ بابنته بهيسة عندما خطبَها سيدُ العربِ الحارثُ بن عوفٍ، لقدْ كان لها الفضلُ في الصلحِ بين عبسٍ وذبيانَ وإيقافِ الحربِ بينهما التي دامتْ أربعين عامًا، يومَ دخلَ عليها وأحضرَ الإبلَ والغنَم ونحر وأوْلمَ وقال لها: قد أحضرتُ من المالَ ما تريدين، لقد عملتُ لكَ عُرسًا لم تسمعِ العربُ بمثلهِ، فقالتْ لَهُ: لَمْ أهنأْ أبدًا ولمْ أسعدْ بهذا العرسِ فقالَ الحارثُ ولِمَ؟ قالت له: أتستفرغُ لنكاحِ النساءِ، والعربُ يقتلُ بعضُها بعضًا؟، قال: فماذا تقولينَ؟ قالتْ: اخرجْ إلى القومِ، فاصلحْ بينهمْ، وتحمَّل دياتهم[1]، ثم ارجعْ إلى أهلكَ، فلنْ يفوتكَ ما تريدُ، وقام الحارثُ كما أشارتْ زوجُهُ ودفعَ دياتِ القتلى وأصلحَ بين العرب.

قال حاتمْ: هذا العملُ الذي تفاخُر بهِ العربُ ليْسَ منْ أوسٍ إنَّه من ابنتهِ فكيفَ أكونُ أنا أفضلُ منْ أوس؟!

وتابعَ حاتمٌ كلامَهُ: وأينَ أنا من أوسٍ، الرجُل الحكيمُ الحليمُ الفارسُ المقدام، ألمْ تسمع قولهُ: خيرُ الغنى القناعةُ، وشرُّ الفقرِ الخضوعُ، إنهُ بهذهِ الأخلاقِ ساد قبيلة طيءٍ، وسادني وهُوَ سيديْ وسيد أولادي وأهلي وعشيرتي...

(١) الدية: المال الذي يدفع لأهل القتيل.

سُرَّ عمروُ بن هند من شهادةِ حاتمٍ بأوسٍ كَمَا سُرَّ منْ شهادةِ أوسٍ بحاتم في الليلة الماضيةِ، وطلبَ منه أن يظلَّ هذا الأمرُ سرًّا بينهما.

ولما عَرَفَ عمروٌ أخلاقَ الرجلينِ أكرَمهما خير إكرامٍ وحباهما[1]، وطلبَ منهما أن يحضرا مجلسهُ كلَّما مرّا من دياره.

رجَع وفدَ طيءِ إلى دياره بعد أنْ قضوا بعض مآربهمْ، وسمعُوا بعضَ أشعارِ عمرو بن هندٍ وأشعار قبيلتهِ.

وذات يومٍ جاء الخبرُ إلى القبائلِ كلِّها أنَّ ملكَ الحيرةِ النعمانَ بن المنذرِ يريدُ أنْ يجتمع معَ وفود منَ العربِ، فعلى كل قبيلة أن تختار نقيبًا يمثلها عند ملك الحيرة أصر حاتم الطائي على اختيار أوس وأقنع قبيلته بذلك، ولكن أوسًا قال لهم: كيف أذهب وحاتم بين ظهرانيكم، إنه زعيمي وزعيمكم، لا، لا لن أذهب، إنَّ حاتمًا هو أهلٌ لذلك.

لم يستطع أوس إقناع حاتم، بل لقد أصر حاتم على أوس أن يذهب ولم يجد أو س حيلة إلا استعملها مع حاتم حتى نفذ صبره، وأخيرًا قرر الذهاب للحيرة ليحضرَ الاجتماعَ، فذهبَ هناك فلمَّا وصَلَ وجد أنَّ زعماء القبائل قد سبقوه هناك فاجتمع معَ النعمان بن المنذر، فرحب به ترحيبًا لائقًا

(١) حباهما: قربهما وودهما.

بمكانته وأكرم وفادته وكانَ قد دعا بحلة منْ حللِ الملوكِ، وقالَ للوفودِ احضرُوا في غد فإنِّي سأعُطي هذه الحلةِ لأكرمكمْ.

خرجت الوفودْ من مجلسِ النعمانِ، وكلٌّ واحدٍ منهم يتمنَّى أنْ يكونَ هُوَ أكرمُ العربِ وَهُوَ صاحبُ الحظوةِ عندَ النعمانِ.

فلمَا كان الغدُ تدافعَ القومُ كلُّهم إلى مجلسِ النعمانِ، إلا أوسًا فقيلَ لَهُ: لِمَ لا تحضرُ المجلسَ لعللك تكونُ صاحبَ الحلةِ!؟.

قالَ أوسٌ: إذا كانَ المرادُ غيري منَ العربِ فهنيئًا لَهُ بالحلةِ، فأحبُّ ألاَّ أكونَ حاضراً؛ فأخشى أنْ يكونَ في نفسي شيءٌ، وإذا كنتُ المرادُ فأُطلب.

نظر النعمانُ إلى ضيوفِه وكلٌّ واحدٍ من الجالسين ينظرُ إليه علَّ نظراتِ النعمانِ ترمقهُ وتفحَّصَ وجوهَ القومِ مليًا وقلوبُ الجالسين تخفقُ، وكأنهم في امتحانٍ عسيرٍ، وبعد لحظاتٍ قال النعمانُ: أين أوسُ بنُ حارثةَ؟.

تعجبَ القومُ من ذلك، وقال أحدُهم تركناهُ في مجلسنَا.

فقالَ لصاحبهِ اذهبْ، واطلبْ منْ أوسٍ أنْ يحضر حالاً.

صار القومُ في حَيْرةٍ منْ أمرهم، وازدادَ همسُ بعضهم وأخيراً حضر أوسُ بين يدي الملكِ فسلَّمَ عليهِ، فقامَ الملكُ وأثنى عليهِ وألبسه الحلةَ!!

لم يرقْ[1] لبعضِ القومِ ما حازَهُ أوسٌ، فحسدوه، وامتلأت قلوبهم غيظًا، ولم يدروا أن أوسًا لم يُسرَّ كثيرًا منْ هذا العطاءِ الذي تمناهُ كثير منهمْ رجعت الوفودُ إلى ديارها، والحاسدونَ يكنُّون لأوس العداوة والبغضاءَ.

واتفقَ ثلاثةُ أنفارٍ منهم على الانتقامِ من أوسٍ، واقترحَ أحدُهم أن يذهبوُا إلى شاعرٍ مشهورٍ ليهجوا[2] أوسًا حتى يشفوا صدورهم!!

واتفقوا أنْ يقصدوا الحطيئة فذهبوا إليه وقالوا لَهُ:

اهجُ أوسًا ولكَ ثلاثمائة ناقةٍ فقد عرفنا هجاءَكَ اللاذعَ.

قال الحطيئة: كيفَ أهجو أوْسًا.

قالَ أحدُ الرجال: تهجوهُ كما هجوتَ كثيرًا منَ الناسِ، قال الحطيئة: نعم لقد هجوت كثيرًا من الناس حتى اشتهرت بذلك بل هجوت أمي، وهجوت نفسي أيضًا.

قالَ الحطيئةُ: معاذَ اللهَ أنْ أهجوَ أوسًا، إنَّني لا أردُّ المعروفَ بالإنكارِ.

قالوا: كيفَ ذلكَ؟

---

(١) يرق: يفرح ويهنأ.
(٢) الهجاء: السبُّ وذكرُ المعايبِ ويكون بالشعر غالبًا.

قال: والله مافي بيتى مِنْ أثاث أو مالٍ إلا منْ أوسٍ، فكيفَ أهجوهُ؟ خذوا نياقكمْ فأنا بغنًى عنها ثم قال:

كيفَ الهجاءُ وما تنفكُّ صَالحةٌ *** مِنْ أَهْلِ لأمٍ بظهرِ الغيبِ تأْتيْني

خرجَ الرجالُ وهمْ واجمونَ مكفهرونَ منْ إجابةِ الحطيئةِ التي لم ينقعوها منه.

خرجُوا يبحثونَ عنْ شاعرٍ آخرَ، فجابوا الوبار، وأخيراً وجدوا ضالتهمْ في شاعرٍ يقال لهُ: بشرُ بنْ أبي خازمٍ منْ قبيلةَ بني أسد.

وافق بشرٌ على هجاءِ أوسٍ مقابلَ الثروةِ التي سيحصلُ عليها، وإنها لثروة عظيمة يحلم بها كل طامع جشعٍ.

وهجاهُ فأفحش في هجائِه، وذكرَ أمَّهَ سُعدَى بأشنعِ الصفات.

لامَ العقلاءُ منْ بني أسدٍ ما فعَلهُ شاعرُهم، وذكروُه بمعروفِ أوس في العربِ، وفضلِه عند كثيرٍ منهمْ، لكنَّ الطمعَ حلَّ محلَّ الإخلاصِ والمودةِ، ولم يكتف بشرٌ بقصيدةٍ واحدةٍ، بلْ نَظَمَ خمسَ قصائدَ انتشرتْ بينَ العرب انتشار النار في الهشيم(١).

(١) الهشيم: النبات اليابس المتكسر.

فرحَ ذو النفوسِ المريضةِ، الحاسدونَ لأوسٍ مِنْ هذه القصائد، وشفتْ صدورُهمْ مما كانَ يتمتعُ بهِ أوسٌ مِنْ سمعةٍ طيبةٍ لدى العرب كافةً وصلت القصائد إلى أوسٍ فسمعها وساءه ما فعل بشرٌ، وتكدرت أيامُه، وقررَ أن ينتقم منْهُ. لو كان الهجاء لأوس وحده لما غضب هذا الغضب، ولكن هل يعقل أن يذكرَ حازم أمَّ أوس بأشنع الصفات. وهل يعقل لعربي أن يفعل هذا!!

جمع أوسٌ بعض الرجال من طيء، وسار بهمْ إلى بشرٍ فأغار على النوق الذي كسبها من هجائه فأخذها، ولحق به فهربَ منهُ، والتجأ إلى بني أسدٍ قبيلتهِ. طالبًا الحماية منها.

طلبَ أوسُ قبيلةِ بني أسدِ أنْ يسلموهُ بشراً، فمنعوهُ منهُ ورأوا تسليمَهَ عاراً وهذهِ كانت عادةُ العربِ في الجاهليةِ.

رَجعَ أوسٌ إلى قبيلتهِ وجمعَ المزيد من الرجال الشجعان وسارَ بهمْ إلى قبيلةِ بني أسدٍ والتقى الجمعان في مكان يقالُ له «ظهرُ الدَّهناءِ» فاقتتلُوا قتالاً شديداً، وانهزمت بنو أسدٍ وفروا وفرَّ معهم بشرٌ.

ضاقُ بنو أسدٍ منْ بشرٍ ومما جرّهُ عليهمْ، فطلبوُا منْهُ أنْ يرحلَ عن قبيلتهم وأعلموهُ أنهم لا يوافقون فعلتَهُ، وإنما حموهُ في المرةَ الأولى ولن يحموهُ إذا طلبهُ أوسٌ.

خرجَ بشرٌ منْ ديارِ قبيلتهِ، ومرَّ على الديار والأحياءِ وكانَ يطلبُ منَ القبائلِ أن تحميَهُ، فامتنعوا عنْ حمايتهِ وإجارتهِ منْ أوسٍ.

وأخيرًا نزلَ على أحدِ الأحياء من بلاد تميم في جبل الصمانِ، فأجارَهُ جندب بنُ حصنٍ الكلابي، لما رآى ما آل إليهِ بشرٌ منْ هزيمةٍ وعارٍ فأشفق عليه.

علَم أوسٌ بالخبرِ، فأرسلَ إلى جندبٍ يطلبُ منهُ بشرًا، ترددَ جندبٌ في تسليمِ بشرٍ وأرسلَ لَهُ أنَّه في حمايتهِ، وعارٌ عليهِ أنَ يُسلمهُ.

جمعَ أوسٌ قومَهُ وسارَ بهمْ إلى الصمانِ وغزا جندبًا وقومَهُ ودارتِ المعاركُ بينَ الطرفين، وكان القومُ قَدْ أخفوا بشرًا كراهيةَ أنْ يقتلَهُ أوسٌ وعلمَ أوسٌ بمكانهِ فلحقَ بهِ وتمكنَ منهُ حاولَ بشرٌ أنْ يطعنَ أوسًا ولكنَّ سيف أوسٍ كان أسرعُ منهَ فنالَ منه عدة ضرباتٍ أوقعتهُ جريحًا.

أمرَ أوسٌ أنْ يحملَ ويرجعَ معهمْ إلى بني طيء، وهناكَ وصل الجيشُ وبشرٌ مقيدٌ في الأغلالِ.. وجروحَه لم تلتئم بعدُ.

سارعَ أوسٌ إلى أمِّه قائلا: أبشريْ يا أمِّي، لقد جئتكِ بالشَّاعرِ الذي هجاكِ. وقدْ أقسمتُ أنْ أقتلَهُ قِتْلَةً تحيين بِهَا!

لم يصدقْ أوسٌ ما قالتهُ أمُّه سُعْدَى!!

قالتْ لَهُ: قبحَ اللهُ قومًا يُسودونكَ، أو يقتبسون مِنْ رأيِكَ!

ماذا تقصدين يا أمي

اذهبْ وداو أسيركَ، واعتنِ به،

قام أوسٌ إلى بشرٍ يضمدُ جراحَهَ، ويطلبُ لَهُ الماءَ والطعامَ، وبعد أيام تماثلَ للشفاءِ ولمَا اطمأنَّ أوسٌ عليه ذهبَ إلى أمِّهِ وقالَ:

لقْد تماثلَ للشفاءِ، هَلْ استطيعُ أنْ اقتلَهُ الآنَ.

- يا بني، أو خيرٌ مِنْ ذلكَ؟

- وما هُوَ:

إنَّهُ لمْ يجدْ لَهُ ناصراً مِنْكَ، ولا مجيراً عليكَ، لقد طَرَدَته القبائلُ وإنَّا قومٌ لا نَرى في اصطناعِ المعروفِ من بأسٍ، فبحقي عليكَ إلا أطلقتَهُ.

- أأطلقهُ يا أمي وقد هجاكَ وهجاني.!!

أطلقهُ، وردَّه إلى أهله سالمًا فإنهم أيسوا منهُ فإنه لا يغسلُ هجاءَهُ إلا مدحُهُ، وأشيرُ عليكَ أنْ تردَّ عليه إبلَهُ، وأنْ تعطيَهُ مِنْ مالِكَ مثلَ ذلكَ، ومنْ مالي مثلَهُ.

قَبِلَ أوسٌ ما أشارتْ عليهِ أمُّهُ، وخرجَ إلى بشرٍ وقالَ لَهُ:

يا بشرُ، ما تظنُّ أني فاعلٌ بكَ؟

قال: العفوُ عندَ المقدرةِ يا أخا العربِ، فإنْ أحببتَ أنْ تقتلني فوالله استحقُ ذلكَ، فالذي فعلتَهُ ندمتُ عليهِ، ولا يغسلُ هجائي إلا مدحي ثم قالَ:

وإنِّي لأمحو بالَّذي أنَا صَادِقٌ
به كلَّ ما قدْ قلتُ إذْ أنا كاذبُ
فِدًى لابنِ سعدَى اليومَ كلُّ عشيرتي
بني أَسَدٍ أَقْصَاهُمُ والأقاربُ

قال أوس:

إنَّ سعدى التي هجوتها قدْ أشارتْ بإطلاقِ سراحِكَ وردِّك إلى أهلكِ سالمًا غانمًا.

وأمَر بحلِّ وثاقه، وأعطاهُ منْ ماله مئةً من الإبلِ ومئةً أُخْرى منْ مال أمِّه وردَّ عليهِ ما كان أخذَ منهُ. وحملَهُ على فرسهِ النجيبِ الذي كانَ يركبهُ ويغزو بهِ، وسارَ مَعَهُ حتى بلغَ بلادَ غطفان، عندهَا لم يصدقْ بشرٌ ما رآه، فرفَع يده إلى السماءِ وقالَ:

اللهمَّ أنْتَ الشاهدُ على ألاَّ أَعودَ إلى شعرٍ إلاَّ أنْ يكونَ مدحًا في أوسِ بن حارثةً.

وهكذا عاشَ بشرٌ حياتَهُ كلَّها لا يقولُ قصيدةً إلاَّ في مدحِ أوسِ بن حارثةَ وأمِّه وقبيلتِه.